خلاصةُ انطباعاتي حول كُتب العالمة المجتهدة السيّدة نصرت أمين والسيّدة هُمايوني

بسم الله الرحمن الرحيم

أ.د. دلال عبّاس

حين يريد الله عزّ وجلّ أن يجعل إنسانًا ما مقرَّبا منه، يهيّء له من أمره رَشَدا. لقد خلق سبحانه الطفلةَ –التي ستصبح العالمة المجتهدة السيّدة نصرت أمين في عائلة من السادة الأشراف، لأبوين اهتمّا بتربيتها كما قالت، وواظبا على تأديبها وإظهار الخبايا التي أثبتها الله تعالى في طينتها وسريرتها، وأحسنا اختيار المعلَّمة التي تتولّى تربيتها طفلةً والزوجَ الذي يكون لها سندًا.

وإن كان من غير المستغرب أن نقرأ في التاريخ الإسلاميّ أسماءَ نساء كان لهنّ أدوارٌ حاسمة في مجالات عديدة، فإنّ سماعَ اسمِ امرأةٍ عالمةٍ فقيهةٍ مجتهدةٍ، أقرّ بعلمها واجتهادها وفقاهتها وتفوّقها العلماءُ الأعلامُ من معاصريها، أمرٌ مثيرٌ للدهشةِ، وربّما للاستغراب لدى البعض، لا سيّما وأنّها وُلدت أواخرَ القرن التاسع عشر الميلاديّ [منذ قرنٍ وربع القرن تقريبًا]، والأُميُّة متفشيةٌ في أوساط الغالبيّة العظمى من أبناء الشعب الإيرانيّ رجالًا ونساءً [كحال الشرق بمعظمه، وبمختلِف دولِه وإثنيّاته والعربُ من ضمنهم]...

نستشفّ ممّا كتبته هي وما رواه المحيطون بها، أنّ توقَها إلى المعرفة كان لا حدّ له، ولم يستطع أيّ عائقٍ أن يقفَ في وجهه ويحدَّ من اندفاعه، والعوائقُ التي كانت تعترضها أكثر من أن تُحصى: الأميُّة المتفشّية، والنظرةُ الدونيّة إلى المرأة، وغنى العائلة وحياةُ البُلَهنية [البحبوحة وسعة العيش] وما يمكن أن يجرّه ذلك من ترفٍ وتكاسل ومَضيعةٍ للوقت، وحياةِ بِطالةٍ قائمة على التمظهر خاليةٍ من المعنى، أو على الأقلّ إغراءات الاكتفاء والرضى بدور ربّة البيت المعطَّلِ عقلُها، الذي تواضع عليه المجتمع. لقد أدّت ها الدورَ على

أحسن وجهٍ، إنّما كان هدفَها الأسمى التزوُّد من المعارف لخدمة الدين، ومعروفٌ ما كان يتعرّض له الدين في حينه من عداء وتهجّم من ناحية، وتحريفٍ وتخلٍّف من ناحيةٍ أخرى. تمنّت العيشَ في غرفة مكتظّة بالكتب لتستغلّ كلَّ لحظةٍ من حياتها بالقراءة والمطالعة، وهي طُلعةٌ ذاتُ قدرةٍ غيرِ عاديّة على إدراك ما يدور حولها. هالها أن ترى الجهلَ مخيِّمًا على الجميع، لا سيّما النساء الغارقات تحت ركامِ الخرافات، أو تحت رماد التحديث الشكلانيّ الفوقيّ، فقرّرت أن تفعل لهنّ شيئًا وفَعَلَت.

منذ صغرِها والقرآن الكريم يُشعِرُها بالأمانِ النفسيّ والاكتفاء المعنويّ، إذًا يجب أن تتعلَّم العربيَّة لتفهم بنفسها ما وراء كلمات القرآن الكريم لتتوصّل في الربع الأخير من عمرها إلى ترجمته وشرحه بالفارسيّة، لتكونَ أوَّل مفسِّرة للقرآن بعد جدّتها فاطمةَ الزهراء، ولم يُقعدْها المرضُ عن متابعةِ التفسير، واستجاب الله دعاءها أن تبقى على قيد الحياة إلى أن تُنهيَ الأجزاءَ الخمسَ عشرةَ من تفسيرها.

من السهل قولُنا إنّها تعلّمت العربيّة خدمةً للقرآن، لكن علينا أن نتخيَّل مدى الصعوبة التي عانتها السيِّدة في تعلّم العربيِّة الصعبِ تعلُّمها على الناطقين بها، فكيف على مَن كانت الفارسيُّة لغتَها الأم، وتعلَّمَتها على نفسها، إنّه الاجتهادُ والعملُ المتواصلُ والمثابرةُ، فتتمكَّن من كتابة رسالة الاجتهاد، **الأربعين الهاشميّة**، أوّل كتبها بالعربيّة وتؤلّف بعده كتابَين آخرين من كتبها بالعربيّة هما **النفحات الرحمانيّة** [الإلهامات والنفحات والواردات القلبيّة التي كانت تدوّنها كلّما عنّت لها]، و**جامع الشتات**، وفيه أجوبتُها عن الاستفتاءات التي كانت تَرِدُها.

النساء من حولها يتحدّثن عن الأمور البيتيّة أو عن الثياب والزينة، وهي تتحدّث عن الموجودات والعالَم والخالق، فتُشْعِرُ المخاطَبات أنّها مرشدتهنّ وهنّ مريداتُها حتّى الأكبر سنًّا منها [كما روت السيّدة همايوني عن علاقة

والدتها بالسيّدة نصرت أمين].

ليس مستغربًا أن نقرأ أنّ هنالك مَن هاجم السيَّدة حين خرج اوّل كتبها **"الأربعون الهاشميّة"** إلى الوجود، فمعظم الناس في عصرها -وبعضُهم في عصرنا بعد قرنٍ من الزمان- من المفكّرين ومن غير المفكّرين، لا يؤمنون أصلًا أنّ بإمكانِ المرأة أن تقومَ بعملٍ عظيم يحسدها عليه الرجال والنساء: الحداثيّون ظنًّا منهم أنّ امرأةً محجَّبة، ملازمةً منزلَها، ترتدي العباءة [التي يكرهونها]، لا يمكنها أن تُنتجَ ما أنتجت من دون مساعدةِ أحد، والمتزمّتون الذين يَرَون إلى المرأةِ إنسانًا ناقصَ العقلِ والدين.

في دراستي لها فلُّيت كتبَها، واحدًا واحدًا، وجدتُ أنّ كلّ كتابٍ من كتبها يشكّل بحدّ ذاته أطروحةً متكاملةً منهجًا ولغةً وموضوعًا، وإن كان يجمعها خيطٌ واحدٌ هو شخصيُّة صاحبتها ونهجُها في التفكير وفي معالجة الأطروحات المتنوّعة؛ إنّها شخصيُّة عالمةٍ مجتهدةٍ، تبدأ منذ الصغر بتعلّم العربيّة لفهم القرآن الكريم، ومن القرآن تنطلق إلى الحقول المعرفيّة الأخرى، وليس العكس، لتصيرَ وهي في الأربعين عالمةً أصوليَّة مجتهدةً، تؤصُّل لما تقوله بالآيات القرآنيّة، وبها تُثبت حجيّة آرائها الفقهيِّة **(جامع الشتات)**، والحديثيّة **(الأربعون حديثًا)**، والفلسفيّة **(المعاد)**، والعرفانيِّة **(النفحات الرحمانيّة، ومخزن اللآلي)**، والاجتماعيّة **(طريق السعادة)**، وفي هذه الكتب كلّها تتجلّى بوضوح موسوعيُّتها الثقافيّة وسعةُ مخزونها المعرفيّ، وتداخلُ المواضيع المختلفة في الكتاب الواحد وتعاضُدها، أي تآزرُ المواضيعِ الفقهيِّة الاستدلاليِّة والأصوليِّة والعرفانيّة. يعضد ذلك كلَّه عمقُ المعالجة للمواضيع المطروحة، يساعدها في ذلك المنهجُ الجدليُّ المتشعُّب البحوث ،حيث تطرح على نفسها جملةً من الإشكاليّات المفترضة التي يمكن ان يطرحَها الآخرون، وتجيبُ عنها على نحوٍ منطقيّ ممنهج، في **جامع الشتات** الأسئلةُ والإشكاليُّات يطرحها السائلون، أمّا في الكتب الأخرى فهي التي تطرح التساؤلات

والإشكاليّات والفرضيّات وتجيب عنها.

من مِيزات معالجتها للمواضيع المختلفة أنّها لا تُعيد كلامًا تكون قد قالته في الكتاب نفسه، أو في كتاب آخر لها، بل تحيلُ عليه.

إن كان من غير المستغرب بالنسبة إلى علماءِ الدين الإيرانيّين أن يكتبوا باللغتين العربيّة والفارسيّة، وكلّهم من أصحاب اللسانين، فقد تبيّن أنّ ما يميّز كتب السيّدة من كتب الآخرين الذين نعرف آثارَ بعضهم، هو أنّها كتبت بالعربيّة ما هو موجّه إلى الخاصّة [أي إلى علماءِ الدين وطلبةِ العلوم الدينيّة] الذين يعرفون العربيّة، أمّا الكتبُ الموجُّهة إلى العامّة، أو إلى العامّة والخاصّة على حدٍّ سواء فبالفارسيّة.

لغتُها العربيُّة تسير على نسق واحدٍ في الكتب الثلاثة التي كتبتها بالعربيّة: كتاب **الأربعين حديثًا** و**النفحات الرحمانيّة** و**جامع الشتات**، وليست متفاوتةَ المستوى بلاغيًّا، بمعنى أنّها لغةٌ أدبيُّة راقيةٌ مقارنةً بلغةِ معاصريها، تخلو من العجمة، باستثناء ما يتعلّق بقضيّة التذكير والتأنيث، وقد عرفنا من سيرة السيّدة أنّها تعلّمت العربيّة على نفسها، وعلى أساتذةٍ إيرانيّين أيضًا.

أمّا لغتها الفارسيّة فتختلف من كتاب إلى آخر بحسب مستوى القرّاء المفترضين: ففي كتابها **مخزن اللآلي**، لغتُها أدبيّة جميلة راقية، أكثرت من استخدام الصور التمثيليّة لتقريب المعاني، ومن الاستشهاد بالأشعار العرفانيّة، بينما لغتُها في كتاب **طريق السعادة**، الموجّه إلى النساء، يغلب عليها أسلوبُ المحاضرة، والخطابِ المباشر، فهي تأخذ في الحسبان مستوى المتلقّيات ومعظمُهنّ في عصرها محدوداتُ الثقافة. يمكن أن يُدرس هذا الكتاب وموضوعُه دينيٌّ-اجتماعيٌّ، بمنظار علم الاجتماع الدينيّ، أو علم اجتماع الدين، مع مراعاة انبثاقه من ضرورةٍ فرضتها الظروفُ التاريخيُّة-السياسيُّة في لحظة كتابته، وشخصيُّة السيّدة معلِّمة؛ وفيه مواضيعُ واردةٌ في كتبها الأخرى، لا سيّما كتابا **المعاد** و**مخزن اللآلي**، طرحتها هنا مبسَّطة ليسهل

فهمُها، ومنها المعاد والإمامة والإنسان الكامل، وفضائل الأئمّة وغيرها.

الكتاب الأكثر دلالةً على سعةِ مخزونها المعرفيّ كتاب **مخزن اللآلي في فضائل مولى الموالي** علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي تتداخل فيه المواضيعُ التاريخيّة والحديثيّة والفلسفيّة والعرفانيّة، بأسلوب أدبيّ رفيع. إلى جانب شخصيّتها فقيهةً وفيلسوفةً وعرفانيَّة، تظهر جوانب شخصيّتها عالمةَ اجتماع: توجّه كلامها إلى الطبقات المختلفةِ كتابةً من خلال كتابيها **السير والسلوك** و**طريق السعادة**، الموجّه إلى النساء محاضِرةً عن العقائد والأحكام والمعارف وتهذيب الأخلاق وكيفيّة تحصيل المعرفة، وكيفيّة تحصيل الأخلاق الحسنة، وطريقة الحصول على السعادة، واكتساب الفضائل، والترقّي والتعالي، وحقوق الوالدين على الأولاد، وحقوق الأولاد على الوالدين، وحقوق الأخ على الأخ، والجار على الجار، والحقوق الوطنيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، والحقوق العائليّة، وحقوق الفقراء على الأغنياء إلخ... وعن دور المرأة في تربية أبنائها، لأنّ حضنها وتوجيهاتها هي المدرسة الأولى التي يتربّى فيها الإنسان، والرجل الذي يصل إلى قِمّة الفضيلةِ والشرف، فذلك بتأثير تعليمه وتربيته الأولى.

وتشارك في الردّ على طروحات العصر، وعمليًّا كان مهمًّا تصدّي السيّدة لموضوع **السفور** وطبيقه الإلزاميّ في إيران، الذي أُجْبِرَت النساء بسببه أن يلزَمن منازلهنّ خوفًا من أن تهينهنّ الشرطة. كان الأمر مضحكًا ومثيرًا للسخرية والاشمئزاز: "اخلعي حجابَك فتكوني حرَّة ومتطوَّرة، حتّى وإن كنتِ أميَّة"، لم تكن المعادلةُ منطقيَّة ولا عقلانيّة إنّه فَهْمٌ صِبيانيّ منحرفٌ لموضوع الحريّة والتقدّم...

أهميُّة موقفها أنّه كان قولًا وفعلًا: صحيح أنّ كلّ علماء الدين الرجال عارضوا القضيّة، لكن بالنسبة إلى المجتمع لا سيّما النساءُ المغرّر بهنَّ، هم في النهاية رجال ولا يريدون أن تنالَ المرأةُ حريّتها! لكن كان أكثر فاعليّة

وتأثيرًا أن تقفَ عالمةُ دينٍ، مجتهدةٌ، اعترف كبار العلماء باجتهادها وتتصدّى لهذا الموضوع، ليس دفاعًا عن الحجاب بحدّ ذاته، وإنّما دفاعًا عن الهُويّة، وأنّ الحجاب لا يمنع المرأةَ من التقدّم علميًّا، وهي الدليلُ العمليُّ على ذلك. لقد انصبّت جهودُ السيّدة طيلة المدّة التي استغرقتها الإجراءات العنفيّة على تثقيف النساء اللواتي يجتمعن أسبوعيًّا في بيتها، وعلى تعليم تلميذتَيها السيّدة علويّة همايوني والسيّدة عفّت الزمان أمين، وفي الوقت نفسه تكتب المقالات ، ومن ثمّ تجمع محاضراتها في كتاب هو **طريق السعادة**... تركّز فيه على موضوع التربية الأولى للإنسان طفلًا، وعلى أهميّة اقتران العلم بالعمل، ودائمًا هي الأنموذج المحتذى.

السيّدة زينب السادات المشهورة بـ علويّة همايوني:

تكمن أهميّة الدور الذي أدّته هذه السيُّدة الجليلة أنّها هي التي دوّنت سيرة السيّدة أمين في كتاب **زندگانى بانو ايرانى**، وهي الدليلُ الحيّ على أهميّة الدور التعليميّ والتثقيفيّ الذي أدّته السيّدة نصرت أمين.

السيّدة همايوني أولى تلميذات السيّدة نصرت أمين، المنتظماتِ، كانت تلميذتَها وصديقتها والمتمَّمة لدورها، عَرَفت من قرب أنّ أستاذتها شخصيُّة فريدةٌ، ومثالٌ أعلى للسيّدات في عصرها وفي كلّ العصور، ومن واجبها تجاهها [وهذا إخلاصٌ وشعورٌ بالمسؤوليّة] أن تُعرَّف معالمَ شخصيّتها الحقيقيّة للناس، وأن تذكّر بأعمالِها ومكابداتها، التي لم تخالطها أيُّ شائبة من الشوائب، منذ أن أبصرتِ النور قبل مئة وعشر سنوات [حين كتابة السيرة في العام 2005]، وقالت إنّ ما كتبته عنها إنّما هو حصيلة ما شاهدته وما سمعته منها وعنها، وما عاشته معها طيلة رفقتها لها التي استمرّت خمسين سنة. كانت في السابعةَ عَشْرَةَ والسيُّدة في الأربعين حين بدأت تدرس على يدها، وقد أحسّت منذ الجلسة الأولى في محضَر هذه السيّدة العالِمة بجاذبيّتها الروحيّة والإيمانيّة وبنورانيّتها... وقد حدث في داخلها تحوُّل عجيبٌ عند

رؤيتها لها، وظلّت هذه الحادثة عالقةً في ذهنها طيلة حياتها... وتفاخر السيّدة همايوني بأنّها أوّل طالبة يُتاح لها أن تتتلمذَ على يد السيّدة وتستفيدَ من فيوضات وجودها، وتصفُها بأنّها لم تكن من أهل التظاهر والتفاخر والمباهاة... وتقول إنّها سائرةٌ على نهجها متابعةٌ طريقَها (سفرنامه علويه همايونى، ص29-30).

وتقول إنّ السيّدة أمين كانت حجّة على نساءِ عصرها، كما أنّها حجّة على نساء إيران الإسلاميّة اليوم... وهي قد غلّبت الأوامرَ والنواهيَ الإلهيَّة والأحكامَ القرآنيَّة على هوى النفس، لأنّها قد فهمت جيِّدا معنى التقوى وقيمةَ الإنسانيّة... كما أنّ صبرَها وتحمّلها وتسامحَها واهتمامَها ببيتها وزوجها شواهدُ صادقةٌ على تواضعِها ومحبّتها لله عزّ وجلّ... كما أنّ الآثارَ والكتبَ التي خلّفتها وراءها دليلٌ على أنّها قضت عمرَها الشريف في ترويج الإسلام، والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال المحاضرات والكتابات وتفسيرِ القرآن الكريم وتأسيسِ المدرسة الثانويّة للنساء والفتيات، ثمّ تأسيسِ الحوزة العلميّة [جامعة الزهراء في ما بعد]، وما تحمّلته في هذا السبيل...

والسيّدة همايوني، درّست هي أيضًا بناءً على إصرار أستاذتها، اللغةَ العربيَّة والعلومَ الدينيّة في منزلها للسيّدات اللواتي كنّ يرغبن في ذلك. لقد توسَّمَت الأستاذةُ فيها القابليَّة والاستعداد منذ البداية، وكان ظنّها في محلّه، وأصبحتِ التلميذةُ استاذةً، تقترحُ على السيّدة فتحَ كليِّة للبنات، [السيّدة همايوني كانت السيّدة الوحيدة التي تدخل الجامعة: رفضوا من بعدُ قبول السيّدات]، هذا الاقتراح كان وراء افتتاحِ كليّة البنات ثمّ المدرسة الثانويّة، فكان لهما السَّبْقُ في هذا الميدان، ففتحتا الطريقَ لإنشاء مثل هذه المدارس والكليّات في إيران وفي خارجها.

يتمثّلُ أمامي مجسَّما دورُ السيّدة نصرت أمين معلَّمة، و[تاليًادورُ السيدة همايوني] لا سيّما وأنّ السيّدات اللواتي كنّ يحضرن محاضراتِها ومجالسَها،

كنّ يحضرن مختارات، ممّا يعني أنّهنّ كنّ يتأثَّرن بكلّ كلمةٍ تقولها، ويحاولن التقيّد بنصائحها، والسيرَ على خطاها في أمور عدّة: الموقف السياسيّ-الدينيّ"، في قضيّة خلع الحجاب ومحاربة الدين، وفي الحثّ على تربية الأولاد تربيةً دينيّة، وفي مساعدة الفقراء، ولنا أن نتخيَّل الأجيالَ التي تربّت في احضان هؤلاء الأمهات، ونفهمَ دورها ودورَ السيّدة همايوني وسائرِ التلميذات في التحضير للثورة الإسلاميّة، إنّما بشكل غير مباشر. وأنا شخصيًّا شعرت بعَبَق أنفاسها، وأنا أقرأ كتاب **مولى الموالي**، وكتاب **طريق السعادة** في ما كنت قد قرأته من آراء منظّري الثورة الإسلاميّة المتعلّقة بالمرأة وقبل أن أطّلع على ما سَبَقَتْهم إليه.

وكأنّي بالسيّدة همايوني تطبّق على أرض الواقع دعوةَ أستاذتها من جميع جوانبها، تترجم **"أربعين أستاذتها"**. تكتب الأستاذةُ عنها بمناسبة ترجمة الكتاب: "العالمةُ الجليلة، الفاضلةُ من السادات الحسينيّين، السيّدة زينب همايوني، في عنفوان الشباب، السنّ الذي يهتمّ فيه الشباب، لا سيّما الشابات، بالزينة والمظهر الخارجيّ، وعلى الرَّغم من أنّ الزمن والظروف كانت تتيح لها ذلك، لو أرادت، ولم يكن يقف في طريقها هذا أيُّ عائق، جعلتها أصالتُها وسيادتُها الفطريُّة تختار طريق السعادة، ومنذ الوهلة الأولى التي التقيتُ بها، رأيت على صفحة وجهها آثار السعادة والاستعداد للكمال، فاستحضرتُ قوله عزّ وجلّ " وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا" [الأعراف: 58].

كأنّ السيَّدة نصرت تتحدّث عن نفسها، إنّهما وجهان لشخصيّة واحدة.

إنّ السيّدتين الشريفتين أنموذجان ساطعان على أنّ المرأة يمكنها أيًّا كانت الظروف التي تواجهها أن تصل إلى الكمال الإنسانيّ، تقوم بوظيفتِها الطبيعيِّة زوجةً وربَّة منزلٍ كأيّ امرأة أخرى، وتصل إلى درجة الاجتهاد، وإلى درجة القرب الإلهيّ، ومع ذلك تحافظ على تواضعها في تعاملها مع الجميع من

مختلِف الفئات والطبقات، صبورةً، حليمةً، قدوةً يُحتذى بها...

لقد عملت السيّدة همايوني على تكريم أستاذتها، بأن كتبت إلى السيّد القائد حفظه الله في العام 1989 وكان رئيسًا للجمهوريّة شارحةً صفات أستاذتها والخدمات التي قدّمتها للدين وللمعرفة الدينيّة، راجيةً إقامة مؤتمرٍ في الذكرى السادسة لوفاتها...

لقد أدّت السيّدتان دورًا عظيمًا، والتاريخُ حاضرًا ومستقبلًا إلى جانبهما، وسيشهدُ لهما أنّهما كانتا رائدتين، ومصباحين أنارا طريق الإيرانيّات المؤمنات للوصول إلى ما وصلن إليه اليومَ من مكانة علميّة وعمليّة اعترف بها المنكِرون قبل المحبّين.

تغمّدهما الله برحمته الواسعة وحشرهما مع جدّنا وجدّهما وآله سلام الله عليهم أجمعين.